النساء والرجال

وجوه الاختلاف والتشابه بين الفريقين

بحث نفسي ادبي

١

كان الكاتبان الروسيان الشهيران ، غوركي وتشايكوف يتمشيان في شبه جزيرة القريم ، فالتقيا اتفاقاً بليو تولستوي ، جالساً عند شط البحر ، مطرق الراس ، غائصاً في بحار الافكار ، فجلسا الى جانبيه ، وشرعا يتحدثان في موضوع « النساء » وهو يصغي اليهما صامتاً وقتاً طويلاً . واخيراً رفع رأسه بغتةً وقال : اني اعا اقول الحقيقة فيهنَّ حين اكون « رجل هنا ورجل في القبر » . فاقوطا واقفز الى نعشي واردُّ غطاءهُ عليَّ ، قائلاً لهنَّ افعلن ما شئنَّ

وقد سأل الكونت كيزرلنغ ، الكاتبَ الانجليزيَّ الشهير برنارد شو ، ان يكتب فصلاً لكتابهِ في « الزواج » . فابى قائلاً : لايجرؤ رجل على ان يقول الحقيقة في الزواج ما دامت امرأتهُ على قيد الحياة

ومع ذلك نقول : — ١ : ان الكتابات في هذا الموضوع اكثر الكتابات في الدنيا رواجاً واقلها ثقة . أما رواجها فلانها تهمنا مباشرة . واما عدم الثقة بها فلانها ترجمة اصحابها باقلامهم . وكل ترجمة بقلم صاحبها يخالطها كثير من الوهم لانها تكون غالباً صوت انتقام . ولا يرفع ذلك الصوت الاَّ الجنود المدحورون . فاذا كتب رجل فهنَّ فجراحهُ هي التي تتكلم . وذلك لا تصلح كتاباته للاسناد . وحين يفوز الرجل في ميدان المرأة ينتهي الامر عادة بالزواج . وبعد ذلك يصمت صمتاً شرعيًّا — اذ لا يتكلم اثنان في وقت واحد — واذا غلب انصرف الى تأليف الكتب

على انَّ ما يكتبهُ النساء في تحليل خلق الرجل اكبر خطأً من كتابات شوبنهور ونيتشه ورينجر وغيرهم . لان النساء تفهم الطبيعة الانسانية فهماً دقيقاً . والمرأة في ذلك اكثر حذقاً وتعقلاً من الرجل الجلي . ومع هذا فالرأي ، عندي ، ان النساء احرج من ان يعلنَّ آراءهنَّ بالكتابة . فهنَّ حفرن اعماقهن للكتابة عنهنَّ . لكل امرىء عادي يعرف موضوعنا من جهة واحدة ، فهو بالنسبة لرفيقتهِ معرفة . وقد لا يعرف من ذلك النصف الا نتفاً . وقد تكون معرفتهُ بتلك النتف

معرفة غير تامة . فلنحترس ما استطعنا احتراساً

وسنقسم الطبيعة الانسانية (قسمة مبنية على التحكم) الى الغرائز الاساسية. ونسأل : كيف يختلف النساء عن الرجال في كل منها ؟ فنفترض ان الرجل يولد مجهزاً ببعض الغرائز — كتحصيل الغذاء والحرب والهرب واللعب — وهي غرائز تتجه الى حفظ الفرد . وغرائز اخرى تتجه الى حفظ الجماعات : كالكلام وحب المدح والالفة والاجتماع : وهناك غرائز تتجه الى حفظ النوع : كالزواج والعناية الوالدية . وفي هذا الباب اقوال لا تزال ميداناً للبحث والجدل نعرض عنها ، إذ ليس لها علاقة حيوية بموضوعنا. فيهمنا ان نعرف هل النساء والرجال مجهزون بهذه الغرائز على اختلافها في الكم والكيف . ونبدأ بالغرائز الجنسية او التناسلية

٢ : حتى البيولوجي العارف بحقائق الطبيعة والحياة تدهشهُ سيادة الانثى وتفوقها في عالم الحيوان . فان الذكر في بعض انواع الحشريات مخلوق صغير يتصل بالانثى كزائدة او كعضو اضافي ، وهو غاية في الصغر اذا قيس بها . ففي دودة البحر المدعوة « بونيلا » تجد الانثى تفوق الذكر حجماً ٩٦ ضعفاً وانثى الفراش اطول من الذكر ١٦ ضعفاً ، وانقل منهُ عشرة اضعاف . وملكة النحل اكبر من اي ذكر من ذكور النحل التي تستبيت في طلالها . وسيدة المناكب تفوق الذكر بهذا المقدار حتى انها تأكلهُ في كثير من الاحيان

ولكن ذكور ذوات الفقرات وذوات الثدي تفوق انثاها قوة . فان ارتقاء وظيفة [illegible] واستبدال التنوء خارجي بنمو الجنين في الرحم ، التي على الانثى اثقل القيود ، في حين ان الذكر بقيَ حراً طليقاً ، وغالباً غير مسئول . فيقتل في حروب التنازع على القوت التي لا نهاية لها او لزداد قوة وعتواً

والانثى صفة بيولوجية كالجنس مباشرة . اما عمل الذكر فثانوي من هذا القبيل . وقد اتفقت الطبيعة والخبر العلمي على تبيان قلة شأن الذكر ازاءها . وجميع جاك لوب ببوض صفادع البحر ونجم البحر غير الملقحة فاستولدها بعد ما عالجها بالجواهض او القلويات او الاملاح او السكر او الكحول او الاثير او الكلوروفورم او المسترکنين ، وغيرها . فكان كلاً من هذه المواد حلَّ محل الذكر بسهولة . فاتضح ان الانثى هي الاصل في النوع وان الذكر تبرعها . وللذكر شأن ثانوي في عمل التواصل الذي هو مدار الحياة . فيقف في ازمات الولادة جانباً عديم النفع ، وقد ادرك انهُ

اداة ثانوية في عمل استمرار النوع وان الانثى الصق منهُ بالحياة من هذا القبيل منها تتدفق مجاري الحياة بلا انقطاع بحيث يكون الخلق عمل جسدها ودمها بنوع خاص . فيتدئ يفهم لماذا اوجب الاقدمون واصحاب الاديان العظيمة عبادتها

٣ : عمل المرأة خدمة النوع ، وعمل الرجل خدمة المرأة والولد . ولها اعمال اخرى ، لكنها بحسب ثانوية ازاء هذه . وقد اودعت الطبيعة هذه الاعمال الجوهرية التي يقوم بها الجنسان من غير انتباه خاص ، كلّ ما لهُ قيمة وسعادة في الحياة . لذلك كان عمل الذكر العناية بالذين يعتمدون عليه واعداد قوتهم والمخاطرة في سبيل ذلك فهو بمجرد البيت في طلاب القوت ، كمندوب الغذاء الخاص كما ان المرأة عماد الطبيعة في حفظ النوع واستمراره ، ففرض الرجل العظيم احراز القوت ، واذا طلب غيرهُ من الاشياء ، او اذا طلب كل الاشياء فلانّ هذه تمثل ثروة تضمن الحصول على الغذاء في اوقات الحاجة . فيجب الذكر الطعام بحيّة فائقة ، ويسهل استعبادهُ بهذه الوسيلة ، لانهُ اكثر من الانثى شغفاً بالاكل والشرب . ولذلك امتلكت امنا حواء قلب ابينا آدم بتفاحة . فالنساء يتملكن الرجال بواسطة المعدة

٤ : وبسبب اقتحام الذكر المخاطر في انتجاع القوت صار محارباً . فالقتال بين الحيوانات يقوم بالمخالب والانياب ، وبين افراد الناس بالمزاحمة الاقتصادية ، وبين الدول بالجيوش والاساطيل والصحف . اما طبيعة الانثى فتجنح الى طلب الملجإ دون الحرب . وفي بعض انواع الحيوان تخلو الانثى من فطرة القتال . وحين تقاتل مباشرة فانما تقاتل للدفاع عن اولادها . ولكن يغلب انها قليلة الميل الى العنف . ويغلب ان يظهر عنفها حين يستولي عليها اضطراب فسيولوجي . وهي اكثر صبراً من الرجل مع انها اقل منهُ شجاعةً في مواقف الحياة الخطيرة وازماتها الشداد . فشأنها في محدود في ... ادمات الحياة الصغيرة التي تتجدد كل يوم بلا نهاية لها . فتتحمل المرض ساكنة صابرة . واما الرجل فلا صبر لهُ على تحمل الامراض لانهُ لم يتعوّد السكينة ... الا ... صراخاً . فغريزة الحرب في المرأة ثانوية . اي انها تعتمد على الرجل ... الذود عنها ... فضل ... بالزعيم القوي في الرجال . وفيها عنصر غريب ... طريفاً ... يدخل بعجزها ... في مطالب الاقتصادية فتزوج ... وتأنّ ... شجاعاً ... القيادة . فاذا انصف ... فذلك لان الرجال ضعفت فيهم سجايا القوة والاقدام . ولعلّ ذلك الشيء عن تخنث

الانتظام المتصل في الاعمال الصناعية وقلة الابتكار في الاشغال العقلية مما اضعف الاعصاب وجعل الانسان اليف البيوتية قليل الشجاعة والاقدام

تفوز المرأة في معاركها ليس بالقتال ، ولا بالشجاعة بل بالثبات والمواظبة . ان غريزة المحاربة في الذكر اكثر شدة وظهوراً منها في الانثى ، ولكنها اقل رسوخاً . فانهُ اميل الى المفاوضات مع العدو والتسليم لهُ طمعاً بالصلح ولكن المرأة تفوز بالمواظبة والمثابرة . ان نابليون الذي تمكن من سيادة قارة باسرها عجز عن سيادة امرأته . فقال : ان قوة سجيتي مضرب الامثال . ولكنني ، في عائلتي ، لن ازال ذلك الضعيف العاجز . وقد عرفت سيدات البيت ذلك فيَّ ففي اول عاصفة ثارت بيني وبينهنَّ فزن عليَّ بمواظبتهنَّ وهنَّ يفعلن بي ما يشأن لاني اتعب من المقاومة . » هذا النمر هو النمر السائد في كل الاحيان العائلية . فان الرجل يتكسر غالباً قبل نشوب المعركة . واذا كان النصر حليفهُ فلتلك المرأة فيكون بكاؤها كفيلاً بالفوز . ومن اوليات الحرب عند المرأة الحكيمة « اذا فشلتِ فابكي ثم ابكي وابكي »

٥ : في الافعال التي تحسب من غرائز العمل — كالزحف والمشي والرماية والقفز والتسلق والجري واللعب — تجد الانثى دون الذكر فيها . فانهُ يميل الى الحركة وقد يتطرف فيها . اما هي فميلها الى السكون الذي يزيد على الحاجة . اي انها اكسل منهُ ويغلب ان يقلَّ سعيها كلما زاد ميلها . فهي الجنس الاشد خطراً ، لان الكسل يلد التهاون والعَبَث ولكي يكون الانسان فاضلاً وسعيداً وجميلاً يجب ان يكون مشغولاً

٦ : اذا كانت المرأة تفوق الرجل في الحب فهو يفوقها كثيراً في الصداقة . الرجال يستطيعون ان يكونوا اصدقاء بعضهم لبعض واما النساء فيقفن عند حد التعارف . ولا يرغبن في الصداقة المجرَّدة التي يرغب فيها الرجال فيعسر عليهن تسلية بعضهنَّ بعضاً الا اذا تحدثن في الامور الخاصة . وذلك امر طبيعي كما قال لارشوفوكون قديماً : « ان سبب قلة اكتراث اكثر النساء للصداقة هو شغلهنَّ بمحاباة الحب الذي سبق ذكره . فالحب كما قال الشاعر امر ثانوي عند الرجال ولكنهُ عندهنَّ هو كل الوجود

٧ : من الغرائز ما يصون الافراد ، وتفوُّق الرجال في هذه طبيعي وواضح . اما الغرائز التي تصون الجماعات ، والتي غرضها حفظ النوع فالتفوق فيها للانثى . فهي اكثر من الرجل حبًّا للعشيرة والاجتماع لكنها لا تسأل عمَّا هي افضل الالعاب والتسليات والملاهي وحفلات الطرب ، بل عن اي الاجتماعات يحضرها اكثر الناس واشرفهم .

فهي اقل منهُ ميلاً للعزلة . واقل من ذلك ميلاً للسلك . لانها اكثر احتياجاً اليه منهُ اليها . ولا ريب في ان سبب ذلك حاجتها الى دفاعه وقيادته

٨ : لما كانت اجتماعية بطبعها فهي اكثر منهُ كلاماً وقد شاع بين الناس انها مخزن الاسرار . فهي اكثر صراحة لان رائدها العاطفة والشعور . ووجهها كشلالها يم على ما في فؤادها . لانها لم تتعلم ككبار التجار ألاَّ تجعل وجهها مرآة ضميرها في الاحوال المختلفة من عسر ويسر ، ومسرة وألم . وبقوة هذه الليونة في وجهها برعت في ادراك دلائل الفكر والعاطفة في الآخرين . ولذلك كان خداعها اعسر جداً من خداع الرجل

٩ : ويتنوع حب المرأة للاجتماع بعاملي الحين والتقليد ، فيغلب فيها ان تسلم الزعامة للرجل ، حتى في امر الحب . فان زعامتهُ في هذا الميدان واضحة كل الوضوح . انها عديمة الثقة في ذاتها لان ضعفها الجسدي ، واعتمادها على الرجل اقتصادياً ، يثقلان كاهلها ، ويحيدان بها عن مناحي الثورة والمغامرة . فتلوذ بالعادة والقانون ، والاخلاص للتقليد القديم اخلاصاً دينياً . وتأخذ بالازياء الحديثة في الملابس والزينة والآراء . فعقلها اكثر تعرضاً من عقل الرجل لاثر الخرافات والخزعبلات التي تحل محل تقدم الفكر تقدماً منظماً . لذلك يعزيها الوسيط بظهور الاشباح ، ويتذي عقلها بالطقوس والاوهام الجديدة

١٠ : المرأة اقل جرأة من الرجل على تغيير المألوف . فهي تبرز الى العالم شخصيات اقل توغلاً في الجنون ، واقل تفوقاً في الذكاء . والتباين بين افرادها اقل منهُ بين افراده . لان اضطرار الرجال الى تغيير المحيط وتنويع البيئة والبضائع والملبس والتجارة آن الى تلبسهم بالوف الصور . ولكن عمل المرأة في البيت ظل تقليدي قديم . والعادات التي ورثتها عن اسلافها ، في كيفية اقتناص القرين وتربية الاولاد تجعل المرأة تجري في نهج واحد ونفسية واحدة . فصيغت النساء في ذلك على مثال واحد فهن يتشابهن في النفس مع اختلاف الوجوه . ولعل ذلك يعلل سهولة انتقال الحب من امرأة على الرجل ، من امرأة الى اخرى . لانهُ انما يتسلم بذلك اعضاء جديدة ، لا عضواً جديداً ، حتى انهُ يستعمل كلاماً واحداً يقبل كل واحدة مع اختلاف الحين . ان اكثر الرجال احبت ثم فقدت حبيبها فانها ترى ان ورثها لا يعوض . لانها تترك رجلها بالك ورة الخاصة التي احبتها . وحينما تتجه عقلها يشبها على النسخة الذاكرة .

(عن الانكليزية لول دورانت) حنا حداد